إطلالة أثرية على معالم الفترة العثمانية
بمدينة البليدة

سعاد بن شامة
جامعة المدية

العمارة العثمانية في مدينة البليدة:

إن المعالم العثمانية بمدينة البليدة بصمات حقيقية ولمسات استثنائية، يصعب تكرار اها. فما كان أمر البناء بها عشوائيا وإنما الكل خضع لتخطيط وتصميم مسبقين، كل منهما خلفه منظومة كدهشة علمية وهي على ذلك تُفك أسرارها. وقد انتقل الفن المعماري العثماني من إقليم إلى آخر ليَمثّل نمطا ويؤكد إمكانية تحقيق تميزه.

بعيدا عن البُنى المختلفة تنحصر المعالم الباقية في مدينة البليدة في نماذج محدودة ومعدودة منها المسجد التركي الحنفي، ضريح سيدي يعقوب، دار عزيزة و حمام سيدي عبد الله، دون نفي وجود غيرها، وهي منشآت اجتمعت لتشكل أساسيات المدينة كما غيرها من المدن الإسلامية. والتي أحيطت بسور فتحت به ستة أبواب؛ باب السبت، باب الرحبة، باب القبور، باب الزاوية وباب الجزائر وباب فرعي يعرف بباب الخويخة.

للمدينة موقع تاريخي :

اكتسبت مدينة البليدة نصيبها من الإرث الأثري والثقافي اصطفت بذلك بامتياز مع جملة أشهر المدن الأثرية والتاريخية وأعرقها في الجزائر، وهي تحتفظ بما جاد به لها التاريخ الذي منحها أصالتها، هذه الأخيرة التي أدرجتها في سياق ينضح بما تنوّع فيها من معالم تشهد للعهد العثماني بالاستقرار وجعلها من مدن دار السلطان.

يتفق المؤرخون على أن تأسيس مدينة البليدة كان عام 1535م، بحيث تمكن سيدي أحمد الكبير ومرافقيه من مهاجري الأندلس وبتدخل من خير الدين من وضع أسس المدينة الأم، وما يعرف بالنواة الأولى وكان أول ما شيدوه مسجدا وفرنا وعددا من المساكن.

اختاروا المنطقة لمؤهلات طبيعية ،كقربها من وادي الكبير والأراضي الفسيحة واخضراره، كما يكمن ثراء مدينة البليدة في ثلاث محاور أساسية ؛ في موقعها في متيجة؛ معرفتها للوجود العثماني والذي غذاه الوفود الأندلسي .

1- المسجد التركي الحنفي :

و يعرف أيضا بمسجد اسطمبولي، و هو من مساجد الأحياء الصغيرة وقد سُنّ فيه المذهب الحنفي ولفئة المصلين الأحناف، مما جعله يحضى بقدر كبير من الأهمية الآثرية والتاريخية مما صنع للمدينة مشاهدا فتحت لها بذلك بابا تاريخا، وقد تم تأسيسه سنة 1164هـ ،1750 م وهو وقف عام ـ حبوس ـ .

إن المظهر البسيط المتناسق للواجهة الرئيسية (صورة:01) للمسجد تنفرد دون غيرها من الواجهات الأخرى بالعناصر و المرافق الأساسية للمسجد بحيث يلاحظ فيها توازنا معماريا؛ يتوسط المدخل

الرئيسي جدار الواجهة و هو أصلي ، و على جانبيه مدخلين آخرين من أعمال الإضافات لتوسيع نطاق الدخول إلى المسجد و الخروج منه . أما أركان الواجهة ؛ فالميضئة يمينا و المئذنة يسارا (صورة:02) و (صورة :03).و قد تعذر التصوير الكلي لضيق الممر أمام المسجد .

(صورة:01) الواجهة الرئيسية لمسجد التركي الحنفي.

(صورة :02) الميضئة

(صورة :03) المئذنة

إن مئذنة المسجد ثمانية الأضلاع وغير شاهقة الطول، يعلوها جوسق بتسقيف هرمي، أما فيما يخص بيت الصلاة (صورة:04) فتتوزع فيها أعمدة حجرية اسطوانية ملساء، تحمل تيجانا على نوعين، الأول بسيط يقرب يقرب من التربيع ليس بها زخارف، أما النوع الثاني فبه لفائف ركنية بينها نتوء، وتحمل هذه التيجان عقودا نصف دائرية، لتشكل فيها جملة هذه العناصر بوائكا موازية لجدار القبلة، وما يلفت الانتباه هو السدة التي تشغل

القسم الخلفي من بيت الصلاة و جزءا من جانبيها . و قد صممت كتوسعة لحيز الصلاة لتعذر الزيادة حول المسجد لمجاورته للمباني .

(صورة :04) بيت الصلاة ـ السدة

يتصدر جدار القبلة المحراب(صورة :05) وهو نصف دائري بارتفاع 2.30 م و نشير أن هذا المسجد قد تضرر من هزة أرضية ضربت المدينة مما أسقط القبة التي تعلو المحراب وعوضت بتسقيف يؤدي بعضا من وظائفها كالإنارة مثلا، كما يحتفظ المسجد بتسقيفه الأصلي، بأنصاف برميلية موازية لجدار القبلة.

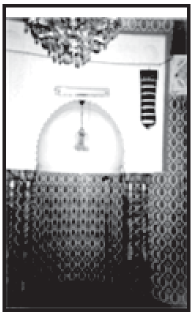

(صورة: 05) المحراب

أما عن تخطيط المسجد والذي يمثل مسقطه الأرضي (شكل:01) فهو أصلي وتظهر فيه جلية مواضع الأجزاء الرئيسية والمرافق.

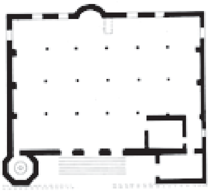

(شكل :01) مخطط أرضي للمسجد

2 ـ ضريح سيدي يعقوب:

يعتبر ضريح سيدي يعقوب(صورة :06) هو الآخر من النماذج التي أثرت مدينة البليدة، تم بناءه بعد وفاة سيدي يعقوب إثر عودته من الحج، في وسط حديقة محمد الخامس، وذلك في القرن السادس عشر ميلادي. وهو معلم غير مصنف، يحضى إلى يومنا هذا بدلالة روحية لدى البليديين، كيف لا ولصاحبه صحبة بمؤسس مدينتهم.

وضريح سيدي يعقوب بناء مستقل البناء من غرفة واحدة تعلو قبة ثمانية الأضلاع ، له مدخل بسيط. وهو من ضمن الأضرحة ذات المسقط المربع (شكل:02) والمغلقة .

(صورة :06) ضريح سيدي يعقوب

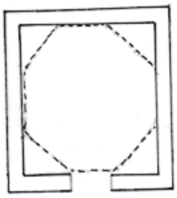

(شكل : 02) مخطط الضريح

3 ـ دار عزيزة :

تحتفظ مدينة البليدة بدار عزيزة كنموذج للمساكن العثمانية وهي فريدة من حيث تصميمها ونادرة شبه يماثلها (صورة :07)، وهي تتربع في وسط فسيح في بلدية بني تامو، على بعد 06 كلم من مدينة البليدة، وتعتبر من مساكن الفحص.

(صورة :07) دار عزيزة

وقد بنى الحاكم مصطفى باشا الدار لابنته عزيزة، خلال القرن 12هـ، 18م ، راحة لها ولعائلته في فصل الصيف، وهي منفتحة على الهواء اللطيف من جانبها الشمالي الغربي.

يبدو في المظهر الخارجي للدار واجهتين ـ فقط ـ مثل ما هو مجسد في داخل الدار (صورة:08) بطابقين أرضي وأول ثم سطح، وقد صممت الدار على شكل حرف (L) إذا للدار رواقين جانبيين فقط، وبنوعين من الأعمدة المركبة، الأول منهما بجزء سفلي مضلع يعلوه جزء حلزوني، بينما الثاني جزءه السفلي مضلع والعلوي منه مسنن ـ منشاري ـ.

ومازالت معظم غرفها تتمتع بأسلوب تصميمها المتطاول (شكل:03) و(شكل:04) بمدخل يتوسط الجدار في كل جانب منه نافذة، وأهم ما يلفت النظر في هذه الغرف هي الحنيات ـ الأواوين ـ والتي تعلوها الشمسيات ـ القمريات ـ وكذا وجود الخزائن الجدارية، كما تحتفظ بعض الغرف بتسقيفها الأصلي وزخرفته، فقد أبدع المعماري في تشكيل السقف من قطع الخشب المزخرف بالورود.

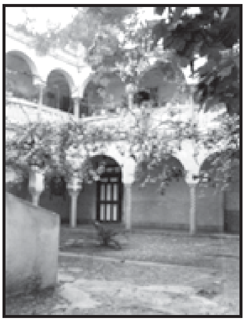

(صورة : 08) الصحن ـ وسط الدار ـ

أما فيما يخص مرافق الدار فإن تغييرات كبيرة حدثت عليها، ولم نعثر على مواضعها وعناصر وظيفتها. ونقصد هنا المطبخ والحمام خاصة، وهما المرافق الضرورية في المساكن، كما تحتوي دار عزيزة على سطح (صورة :09) و(شكل :05) يطل من خلاله على ما حول الدار من سعة المكان واخضراره.

(صورة :09) السطح

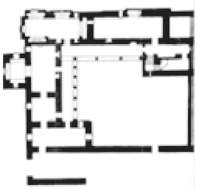

(شكل 03) الطابق الأرضي

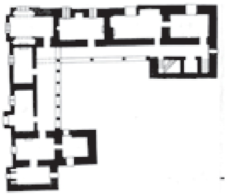

(شكل : 04) الطابق الأول

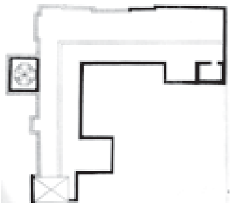

(شكل :05) السطح

حمام سيدي عبد الله :

إن حمام سيدي عبد الله الذي أخذ تسميته من اسم ولي صالح يقربه موقعا في وسط الحي العتيق بالمدينة ، بشارع الباي تحديدا، أسس سنة 1818م ، يدل عليه للوهلة الأولى مدخله في ركن الواجهة الرئيسية (صورة :10). والتي تحوي أيضا عددا من النوافذ الصغيرة والقليلة العدد.

ولا يبتعد هذا المدخل في تصميمه الفني عما ألفناه في تصميم مداخل المساكن، فعلى كل جانب منه عمود مركب من جزء سفي مضلع و علوي حلزوني، يرفعان عقدا متجاوزا منكسرا تعلوه لوحة غير أصلية مدون عليها كلمة: حمام.

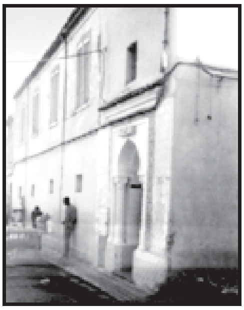

(صورة :10) حمام سيدي عبد الله .

ويعتمد الحمام على نظام تتابع القاعات الثلاثة الرئيسية (صورة :11)،(صورة :12) (صورة:13) الباردة، الدافئة والساخنة. وهو تسلسل صحي امتازت به الحمامات الإسلامية. وتتقدم القاعات سقيفة تحقق حجب النظر عما في الداخل، بها مقاعد جانبية، لتليها القاعة الأولى والتي تحتوي على مصطبة لوضع الأغراض، أما القاعة الدافئة فيوجد بها خزان جداري للماء البارد، ثم القاعة الساخنة وهي مجهزة بموضع لتسخين الماء وما تعرف بالبرمة، حاليا يعتمد الحمام على نظام تسخين عصري، ولم يعد للقدر النحاسي دورا بارزا، كما جهزت القاعة الساخنة

بأحواض فردية يصب فيها صنبورين، أحدهما للماء البارد والآخر للساخن، وتتوسطها السرة التي تعلو موضعها القبة المركزية الثمانية الأضلاع.

أما الجوانب الأربعة للقاعة فتشغلها أروقة ببوائكها من أعمدة ترفع تيجانا وعقودا تجاوزت منكسرة وقد سقفت هذه الأروقة بأقبية متقاطعة.

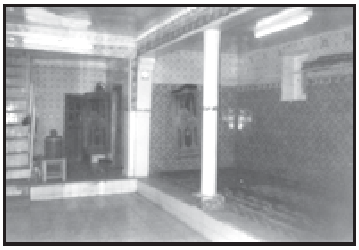
(صورة :11) القاعة الباردة.

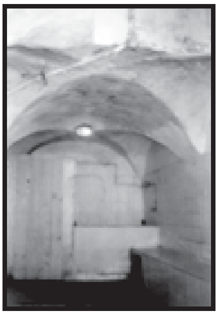
(صورة :12) القاعة الدافئة

(صورة :13) القاعة الساخنة

ومن العناصر الأساسية لتسيير الحمام الموقد و موضعه باق إلى يومنا هذا ، يجاور القاعة الساخنة وأسفلها، وقد تمكنا من الدخول إليه و هو متسع مجهز حاليا بأنابيب مائية و جهاز التسخين . أما عن المدخنة فقد أزيلت تماما ولم يبقى لها أثرا .

وللإشارة فإن التصميم العام للحمام وتخطيطه أصليين (شكل :06) ولم تدخل عليه تغييرات قد تمس بوظيفته عدا طريقة التسخين . و هو بأقسام متكاملة الوظائف، وله أيضا مرافقا عبارة عن خلوات لغرض الاسترخاء خاصة .

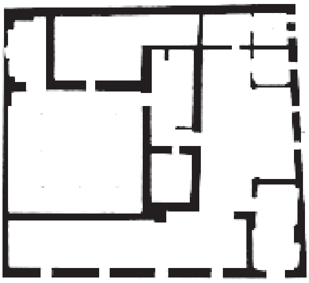
(شكل :06) مخطط أرضي للحمام .

إن الاستقراء المتأني للملامح المعمارية في مدينة البليدة يوحي باتفاق الأبعاد في البناء بين مختلف العمائر وينحى ذلك إلى خلفية عقدية والتي تعد كأنسب متكأ لتشكيل الهيكل المعماري الذي لا يعد أحجاما صمّاء جوفاء من المنظومات المحورية في المجتمع الجزائري، وإنما حقق ثنائية متكاملة بين الإنسان ومكانه، وبالتالي تكاملت المدينة بما احتوت من أساسيات المنشآت وحققت تمدنا تجلت فيه مظاهر الرقي الذي دعمه مهاجروا الأندلس بمختلف مساهماتهم في مجال العمارة والنشاطات الصناعية والحرفية.

التهميش :

1) ـ عن تاريخ المدينة الذي دوّن في مسار شحيح، يستعان بمراجع مهمة، يمكن الاعتماد عليها في بناء تاريخ البليدة خاصة الفترة العثمانية، نذكر بعض منها:
ـ البكري أبو عبيد عبد الله ابن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، بغداد.
ـ بفايفر سيمون، مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، ترجمة وتعريب وتقديم، أبو العيد دودو، الجزائر، 1998.
ـ خوجة حمدان بن عثمان، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005 .
ـ جبار آسيا، مدن الجزائر في القرن التاسع عشر، ANEP ، الجزائر، 2005.
ـ حليمي عبد القادر، مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها قبل 1830، الطبعة الأولى، 1972
ـ زبادية عبد القادر، الجزائر في عهد رياس البحر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
ـ سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1996.
ـ سعيدوني ناصر الدين، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 .
ـ عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الأول، مكتبة الحياة، بيروت.
ـ الميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب.
ـ نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، منذ أقدم عصورها إلى انتهاء العهد العثماني، ط2، الجزائر، 1962 م.
ـ يفر، البليدة، دائرة المعارف، يصدرها بالعربية أحمد الشناوي وآخرون .
_ BENHAMOUCHE .mustapha .DAR ES_SULTAN . l algerois a l epoque ottomane. Getion urbaine et amenagement du terettoire ; dar al bassair .1 edition . 2009.
- GAID, M.L'Algerie sous les turcs 2eme édition-Alger1991-
- LYES , F, et d'autre. Guide, Blida, Cherea et leurs environs, Blida, 1948.
- MONNACHE ,M. Alger et ses environs, 4 plans, 2 cartes, 14 gravures, librairie hachette, Paris 1927.
- SAIADOUNE, N. l'Algeroi Rural à la fin de l'époque ottomane, 1830-1791 . Dar el gharb el islami
-TRUMELET . Blida , récites selon la légende la tradition et l'histoire , Alger , 1887 .

2) ـ أما فيما يخص جانب تحليل أنواع العمارة بما تضمنته من عناصر معمارية، فمن الأهمية الرجوع إلى المراجع التالية :
ـ الألفي أبو صالح، الفن الإسلامي.
ـ الأنصاري رؤوف، عمارة المساجد، دار النبوغ، بيروت، 1996 .
ـ جودي محمد حسين، العمارة العربية الإسلامية، خصوصيتها، ابتكاراتها، جماليتها، الطبعة الأولى، عمان، 1998.
ـ رفعت موسى محمد، الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية.
ـ الريحاوي عبد القادر، العمارة في الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، مركز النشر العلمي، جدة، 1990.
ـ الزحيلي وهبة، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، الجزائر، 1991 م.
ـ زغلول سعد عبد الحميد، العمارة والفنون في دولة الإسلام، المعارف، الإسكندرية، 1986.
ـ سالم عبد العزيز، المآذن المصرية، نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني، مؤسسة شباب
ـ سامح كمال الدين، العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991.
ـ عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، 1999.
ـ عزوق عبد الكريم، القباب و المآذن في العمارة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1996.
ـ عقاب محمد الطيب ـ قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دار الحكمة، 2000.
ـ عقاب محمد الطيب، المدخل إلى المسكن العربي الإسلامي بمدينة الجزائر، المؤتمر 29 محرم-صفر 1403هـ، 15-18 نوفمبر – تشرين الثاني، 1982
ـ عقاب محمد الطيب، لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1990 .
ـ فكري أحمد، مساجد القاهرة و مدارسها، العصر الفاطمي، الجزء الأول، دار المعارف، مصر، 1965.
ـ لمعي صالح ـ القباب في العمارة الإسلامية، دار البهجة العربية، بيروت.
ـ ماهر سعاد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، مصر، 1971
ـ مؤنس حسين، المساجد.

-المظفر العميد طاهر، تخطيط المدن.

- الولي طه، المساجد في الإسلام.

- وزيري يحي، موسوعة عناصر العناصر الإسلامية ،الكتاب الثاني، مكتبة مدبولي، 1999 .

- لعرج عبد العزيز محمود - العمران الإسلامي وعمارته السكنية، حولية المؤرخ، مجلة دورية يصدرها إتحاد المؤرخين الجزائرية - العدد 3-4، 2003.

- موساوي عربية، الحمامات الجزائرية، رسالة ماجستير، علم الآثار، جامعة الجزائر 1981.1980.

- BOUROUIBA,R. Apports de l'Algerie a l'architecture religieuse arabo-islamique, office des publications..

- BOUROUIBA,R. l'Art Musulman en Algerie, s n e d, Alger, 1972.

- DOKALI,R. les Mosqués de la période turque à Alger, 1984.

- GAID, M.L'Algerie sous les turcs 2eme édition-Alger1991-

- GOLVIN,L . Palais et demeures d'Alger a la periode ottomane , inas , Alger , 2003.

- GOLVIN,L . Palais et demeures de Tunis, 19-18, cnra, Paris, 1983.

- MARCAIS, G. l'Architecture musulmane d'occident, Paris, 1955.

- MISSOUME,S. Alger à l'époque ottomane, la médina et la maison traditionnelle, inas, Alger, 2003.

- DOUTE , E. Menarets, Revue africaine, 1899.